وقفة عند قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾

سماحة العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي

النجف الاشرف–العراق

فحوى البحث

في البدء نشكر الله العلي القدير على عودة سماحته الى العراق بعد رحلة علاج طويلة موفقة سالماً معافىً ليواصل نشاطه العلمي الذي لازمه لاكثر من سبعين عاما.

والبحث وقفة تحليلية عند الآية ٢٠١ من سورة الأعراف المباركة جاءت ضمن ثلاثة محاور تناولها سماحته بالتحليل العرفاني الدقيق الذي يناغم الروح وهي:

المحور الاول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ حيث سبح في غمار معاني التقوى ولوازم هذه الصفة.

المحور الثاني: طائف الشيطان وقد جسده ليبدو شاخصا كانك تراه.

المحور الثالث: التذكر النابع من الايمان الحق الذي به يبصر المؤمن طريقه الذي يؤدي به الى الصلاح في الدنيا والفوز بالرحمة في الآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أتحدث إن شاء الله عن هذه الآية الكريمة (وهي الآية ٢٠١ من سورة الأعراف) ضمن ثلاثة محاور:

المحور الأول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾.

والمحور الثاني: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾.

والمحور الثالث: ﴿ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

-١-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾

التقوى: كفّ النفس عن الهوى فيما حرّم الله تعالى، وهو نحو من المقاومة النفسية.

وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تعريف التقوى: (أن لايراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك) وهو تعريف دقيق للتقوى وهذا الحضور في مواقع الطاعة، والغياب عن مواقع العصيان يتطلب جهداً نفسياً نسميه بالمقاومة النفسية.

آفات التقوى:

آفات التقوى كثيرة، ومن أهمها (الغفلة) عن الله. ولو أن الانسان كان يستحضر في نفسه دائماً حضور الله، ولم يغفل عن ذكر الله لم يرتكب إثماً، ولم يتخلّف عن طاعة الله، وهي من أعظم مصائب الانسان.

ولا نعرف تصويراً للغفلة أدق وأروع مما جاء في القرآن الكريم في [سورة يس: ٥ -٩] ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

معنى الإقماح: أن يُغَل العنق ويشدّ الى الذقن بالاغلال. فلا يستطيع المُقْمح أن يرفع رأسه، ولا يستطيع أن ينظر الى نفسه، ويجعل الله عليه سداً من بين يديه ومن خلفه، فلا يستطيع النظر أمامه، ولا النظر خلفه، ثم يغشيه الله فلا يبصر شيئاً.

وكذلك الغافلون، لا يذكرون الله،

ولا يستطيعون النظر الى انفسهم. ولا يستطيعون أن يتذكروا الحياة الآخرة امامهم، ولا يستطيعون ان يتذكروا ما خسروا من عمرهم في الباطل من خلفهم، فيغشيهم الله تعالى فهم لا يبصرون.

وهذه غفلة في أربعة أبعاد: غفلة عن الله، وغفلة عن النفس، وغفلة عن الموت وما بعد الموت، وغفلة عما انصرم من عمره في الباطل.

وهذا الذي يصنعه الله تعالى بهم عقوبة على غفلاتهم. وعقوبة الغفلة في الحياة الدنيا: الاغفال وهو من سنخ الغفلة، كما أنّ عقوبة الريب والضلال: الاضلال.

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة ابراهيم: ٢٧].

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[سورة غافر: ٣٤].

وعقوبة مرض النفاق مضاعفة المرض: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[سورة البقرة: ١٠].

مكافحة الغفلة:

إنّ الشيطان يدفع الانسان على مزالق الفتن والاهواء، في ساعات الغفلة، والذين يستحضرون دائماً حضورهم بين يدي الله تعالى، ويذكرون أنهم مكشوفون لله، لا يعصون الله، ولا يخافون امراً لله تعالى.

وعلاج هذه الآفة في كلمتين: المراقبة، والذكر. فهما يُحصِّنان الانسان من الغفلة، وبالتالي هما يحصّنان الانسان من مزالق الاهواء والفتن. واليك توضيح هاتين الكلمتين.

المراقبة:

المراقبة واحدة من أركان منهج التربية الاسلامية، وهي من أفضل آليات التربية الذاتية في الاسلام.

والانسان يرقى الى حالة المراقبة من (المحاسبة)، فاذا تمرّس في محاسبة نفسه يومياً تمكن من المراقبة الدائمة لسلوكه وكلامه.

والمراقبة الدائمة في مراحلها الاولى صعبة، ولكن الانسان كلما مارس الرقابة على نفسه اكثر، تَيسّرت له (المراقبة الذاتية) اكثر، حتى تصبح ملكة راسخة في النفس،

فاذا كانت كذلك فلا تكلفه جهداً، وتجري المراقبة بصورة مريحة من غير تعب وعناء نفسيين.

وللقرآن الكريم عناية كبيرة بتعميق الايمان بحضور الله تعالى ومعيّته الكاملة للانسان، والايمان بأنّ الانسان مكشوف لله تعالى ولا يخفى منه على الله تعالى شيء، ويدخل المراقبة كما قلنا ركناً اساسياً في أسُس المنهج التربوي القرآني.

يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[سورة المجادلة: ٧].

وهي واحدة من آيات كثيرة في القرآن تؤكد عدة حقائق في علاقة الانسان بالله تعالى.

١. علم الله بالانسان بظاهره وباطنه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[سورة غافر: ٩١].

٢. الانسان مكشوف لله تعالى، لاتخفى عليه تعالى خافية منه، ظاهرة وباطنة، في سره وعلنه.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾[سورة ق: ١٦].

٣. معية الله تعالى للمؤمنين ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾[سورة المجادلة: ٧].

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [سورة ق: ١٦].

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[سورة الحديد: ٤].

الذكر:

والأمر الثاني الذي يحفظ الانسان من الغفلة: ذكر الله تعالى، والذكر في مقابل الغفلة والنسيان. ونريد بالذكر هنا أن يتذكر العبدُ اللهَ سبحانه عندما يهّم بالمعصية، فيحفظه ذكر الله من الدخول في معصية الله.

وليس المقصود من الذكر الاوراد التي يألفها الناس في ذكر الله تعالى، وإن كانت من الذكر، وإنما المقصود بالذكر هنّا أن يتذكر الانسان الله سبحانه في نفسه فيكفّ عن المعصية، ويحّصنه الذكر منها.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال

لحسين البزاز: ألا أحدثك باشد ما فرض الله عز وجل على خلقه؟. قال قلت: بلى.

قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك المؤمن، وذكر الله في كل موطن. أما إنى لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله اكبر، وإن كان هذا من ذاك ولكن ذكر الله في كل موطن اذا هَجَمْتَ على طاعته او معصيته[1].

٤. ثمرات التقوى:

ثمرات التقوى في القرآن كثيرة نقتصر منها على إحدى عشرة ثمرة:

١- بالتقوى يجعل الله تعالى للانسان فرجاً ومخرجاً من الازمات ويرزقه الله من حيث لا يحتسب ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [سورة الطلاق: ٢ - ٣].

٢- والله تعالى مع المتقين في الازمات والنكبات ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة: ١٩٤].

٣- والله يحب المتقين ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٦].

٤- ويرزق الله تعالى المتقين جنة عرضها السماوات والارض ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾ [سورة الحجر: ٤٥].

٥- ويتقبل الله تعالى من المتقين خاصة: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[سورة المائدة: ٢٧]، ويتقبل من كل بقدر تقواه.

٦- والعاقبة للمتقين ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود: ٤٩].

٧- والله ولي المتقين ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية: ١٩].

٨- وخير الزاد في الطريق الى الله التقوى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾[سورة البقرة: ١٩٧].

٩- والتقوى تُحصّن الانسان تجاه الاهواء والفتن والشيطان. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) ميزان الحكمة ٣/ ٤٢٦.

﴿ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

١٠- وبالتقوى يهب الله لعباده النور والبصيرة والعرفان الذي يفرق بين الحق والباطل في الحياة الدنيا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[سورة الانفال: ٢٩].

١١- بالتقوى يهب الله تعالى لعباده النور والبصيرة والمعرفة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

والمقصود بالعلم هنا معرفة الله وعرفان التوحيد.

وبالتقوى يهب الله تعالى للإنسان البصيرة التي بها يُفَرقَّ بين الحق والباطل والصدق والكذب والهدى والضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[سورة الانفال: ٢٩].

ونخصص خصلتين من هذه الثمرات هنا بالشرح، وهما ((الحصانة)) و((البصيرة)):

التقوى تحصّن الانسان:

التقوى تحصّن صاحبها من ثلاثية الابتلاء وهي: (الاهواء، والفتن، والشيطان)[٢].

وقد ورد ذكر هذه الخصلة في الروايات كثيراً.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (التقوى حصن لمن لجأ اليه) وعنه عليه السلام ايضاً (التقوى حرز لمن عمل بها) والحرز يحرز صاحبه عن الآفات والاخطار. وعنه عليه السلام (التقوى حصن المؤمن) وعنه عليه السلام (أمنع حصون الدين التقوى). وعنه عليه السلام (لا معقل أحسن من الورع) وعنه عليه السلام: (الجأوا الى التقوى فانه جُنة منيعة) وعنه عليه السلام: (اعملوا عباد الله. إن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لايمنع اهله، ولا يحرز من لجأ اليه)[٣].

وهذه التعبيرات عن خصلة التحصين في التقوى تستوقف الانسان

(٢) الاهواء داخل النفس والفتن والمغريات في الحياة الدنيا والشيطان يزين الفتن للاهواء والشهوات، ويثير الاهواء تجاه الفتن.
(٣) نهج البلاغة خطبة ١٥٧.

عند: (الحصن) (المعقل) (الملجأ) (الحرز) إنّها جميعاً تؤدي معنى واحداً، وهو تحصين التقوى لصاحبها من الاهواء والفتن والشيطان. ومن الانزلاق الى الفتن والمغريات التي حرمها الله على عباده ومن نفوذ الشيطان، فإن الشيطان لا سلطان له على المتقين.

وأبلغ من ذلك كله قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [سورة الاعراف: ٢٦].

ان التقوى لباس، وكما يقينا اللباس من الحر والبرد وعيون الناس، كذلك التقوى لباس يقينا الاهواء والفتن ونفوذ الشيطان.

وكما أن اللباس يستر عوراتنا كذلك التقوى يستر عوراتنا النفسية ويغطيها.

ولا بد لهذه الكلمة من توضيح: إنّ في نفس الانسان من الاهواء والشهوات والغرائز والغضب والانفعالات النفسية التي اذا اطلق لها العنان، كانت أقبح وأبشع من عورات الجسد، وبالتقوى نحفظ هذه الاهواء ونضبطها، ونسترها، فيعرف الناس فينا العفاف والحلم والايثار... وليس الشهوات والغضب والاستئثار.

٢. البصيرة:

بالتقوى يرزق الله تعالى عباده البصيرة والنور الذي يميز فيه الحق عن الباطل والصدق عن الكذب.

وهذا هو الفرقان الذي تشير اليه [سورة الانفال: ٢٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾.

ويقول تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢].

ان هذا القرآن نور وهدى ولكن للمتقين خاصة.

وفي الحديث (أَشعِرْ قلبك بالتقوى تَنَلْ العلم). والمقصود بالعلم هنا كما في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] معرفة الله ومعرفة النفس ومعرفة الغيب.

إنّ التقوى تتحول في نفوس المتقين الى نور ومعرفة وهدى وبصيرة تمكن اصحابها من التفريق بين الحق والباطل

والهدى والضلال والصدق والكذب.

-٢-

﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾

ليس بوسع الشيطان أن يداهم المتقين ويقتحم عليهم قلوبهم وصدورهم وعقولهم، فإن الله تعالى يحصّن المتقين من الشياطين، فلا يجدون سبيلاً الى نفوسهم وقلوبهم إلا أن يمسوهم مساً خفيفاً من بعيد، من غير أن يصدموهم بالاقتحام والمداهمة.

وأسلوب الشياطين في التعامل مع المتقين: (المسّ) الخفيف و(الطواف) من حولهم، ليجدوا ثغرة الى نفوسهم، وهذه الثغرة عادة هي نقاط الضعف في شخصية المتقين، او لحظات الغفلة والنسيان والانفعال والغضب في نفوس المؤمنين، يرصدها الشيطان في هذا الطواف الهادئ، فاذا وجدها نفذ من خلالها الى نفسه، فاذا إنتبه الانسان الى حضور الشيطان فرّ الشيطان واخذ بالطواف حوله، مرة اخرى، يرصد فيه نقاط الضعف لينفذ من خلالها الى نفسه، فإن لم ينتبه الانسان زحف الى نفسه زحفاً هادئاً، فيُذكِّر الله تعالى عبده عندئذ، فيتذكّر، ويبصر الشيطان، فيطرد الشيطان، فيعود الشيطان الى عمله من جديد بالرصد والطواف... وهذا الذي شرحناه هو اسلوب الكرّ والفرّ، وهو ما يسميه القرآن بالوسوسة.

يقول تعالى في قصة نبينا آدم وأمنا حواء﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[سورة الاعراف: ٢٠]. ويقول تعالى في أسلوب عمل الشيطان ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[سورة الناس: ٥].

يقول ابو زيد: طاف: إذا أقبل وأدبر، وأطاف اذا جعل يستدير القوم وياتيهم من نواحيهم[٤].

ويقول الفقيه الدامغاني في (قاموس القرآن) في مادةّ طوف: الطائف الوسوسة والكرّ والفرّ.

والطواف والالمام بمعنى متقارب.

يقول السيوطي في الدر المنثور: (الطائف اللمة من الشيطان).

ويقول الراغب الاصفهاني في كتابه القيم عن مفردات القرآن في معنى

(٤) تفسير القرآن للفخر الرازي: ١٥/ ٩٩.

(اللُمة): ألمت بكذا: اي نزلت به وقاربته من غير مواقعه. ويقال زيارته إلمامة اي قليلة)[٥].

فالشيطان اذن يلمّ المامة خفيفة بصاحب التقوى، فيتذكر، فيفر الشيطان، كالسارق الذي يدور حول البيت المنيع ليلاً، وفي الظلمة، يبحث عن ثغرة في البيت، لينفذ من خلالها الى البيت، على خلاف الحروب العسكرية فإن العدو يقتحم ويداهم موقع عدوه في وضح النهار وشتان بين الاسلوبين.

وهكذا لا يزيد الشيطان باصحاب التقوى من أن يمسّهم مسّا خفيفاً رقيقاً، ويطوف من حولهم زحفاً هادئاً، لا يثيرهم ولا ينبههم، وذلك أن الشيطان لا سلطان له على اصحاب التقوى.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٠٠].

كيف يتعامل الشيطان مع أوليائه:

وأمّا الاخرون من غير المؤمنين، ومن غير أصحاب التقوى، من الذين يتولون الشيطان، فإن للشيطان سلطاناً واسعاً ونفوذاً قوياً عليهم، فيثيرهم ويؤزّهم أزّا ويؤجّجهم (كالقدر الذي يغلي على النار)[٦].

وشتان بين المس الهادئ الخفيف، وبين الازّ، والتهيج، والاثارة الحادّة في حالات الغضب، وفي الشهوات، ويستحوذ عليهم ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ١٩].

وشتان بين المس الخفيف الذي يتعامل به الشيطان مع المتقين وبين الاسلوب الذي يتعامل به مع الآخرين من غير أصحاب التقوى، يطعنهم طعنا، قاتلا، كالذي يطعن عدوه طعنة قاتلة، فيقتله مرة واحدة، وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[٧] [سورة المؤمنون: ٩٧].

ومعنى الهمز هو الطعن

كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في علاقة

(٥) مفردات القرآن للراغب مادة (لمم).

(٦) الاز التحريك الشديد (الغليان).

(٧) الهمز: الطعن.

الشيطان بأَتْباعه واوليائه:

ولأمير المؤمنين عليعليه السلام وصف دقيق لعلاقة الشيطان بأوليائه من غير المؤمنين والمتقين.

يقولعليه السلام: كما في رواية الشريف الرضي رحمه الله في نهج البلاغة:

((إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له اشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بالسنتهم، فركب بهم الزلل، وزينّ لهم الخطل، فعل من قد شَرَكَهُ الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه))[٨].

وأحب أن أقف، بعض الوقت، عند هذه الكلمة العلوية الرفيعة في صفة علاقة الشيطان باوليائه وأتباعه.

يقولعليه السلام: (اتخذوا الشيطان ملاكاً لامرهم، واتخذهم اشراكاً).

الملاك: القوام، يقال القلب ملاك الجسد: اي قوامه.

والأشراك جمع (الشرَك) وهو حبائل الصيد.

يقول الامامعليه السلام: إنّ هؤلاء القوم إستبدلوا قيمومة الشيطان بقيمومة الله-تعالى -عليهم، فجعلوا الشيطان قيِّماً عليهم وسلّطوه على انفسهم.

فجعلهم الشيطان أعواناً له في إضلال الناس واغوائهم، ونصبهم حبائل للصيد، يصيد بهم الناس.

كأنّهم يقومون بدور الشيطان في التغرير، والتلبيس والتجهيل، والتحريف، وينوبون عنه في إغراء الناس وإغوائهم، وكانه قد فرغ من تسخيرهم لسلطانه، فيخول اليهم هذه المهمة تجاه الاخرين.

(فباض وفرخ في صدورهم، ودرج في حجورهم).

وكأنّ الشيطان إتخذ صدورهم عُشّا آمنا له، فيبيض ويفرّخ فيها. و(الصدر) منزل من منازل نور الله، ومن منازل معرفة الله، ويتجلى الله تعالى فيه لعباده الصالحين، فتنقلب صدور هؤلاء الناس في غياب التقوى الى مكان لانتاج المكر والكيد واساليب التضليل والافساد.

وأخذ الشيطان يدبّ ويتحرك في

(٨) نهج البلاغة: خطبة ٧.

أحضانهم (حجورهم)، وكانما اتخذ حجورهم مركزاً لصناعة التغرير والتضليل والافساد.

(فنظر بأعينهم ونطق بالسنتهم).

فكانت العيون منهم، والنظر من الشيطان، والالسن لهم، والنطق من الشيطان، فكانما ينظرون الى الكون وساحة الحياة، كما ينظر الشيطان، وتنطق ألسنتهم بخطاب الشيطان.

وشتان بينهم وبين أولياء الله الذين يسمعون بسمع الله، وينظرون بعين الله، ويبسطون أيديهم على أعدائهم بحول الله وقوته، كما ورد ذلك في الحديث القدسي المعروف:

(لايزال عبدي يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه: فاذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع وعينه التي بها يبصر، ولسانه الذي به ينطق، ويده التي بها يبطش).

ثم يقول عليه السلام: ((فركب بهم الشيطان الزلل وزين لهم الخطل)).

يقول الإمام عليه السلام: إن الشيطان تمكن منهم فسخّرهم لركوب المزالق، وزين لهم الذنوب والاهواء والاخطاء ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٣].

وشتان بين من يتولى الشيطان، فيزين له سوء عمله، ويزين له الشهوات، وبين من يتخذ الله تعالى ولياً له فيُحَبِبُ اليه الايمان والتقوى والطاعة ويزينها في قلبه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[سورة الحجرات: ٧].

عندئذ لا يقسر اولياء الله أنفسهم على الايمان والطاعة والتقوى، وإنما يُقْبِلون عليها عن حبّ ورغبة وشوق، كما يُقبِل اولياء الشيطان على الذنوب والمعاصي.

ثم يقول عليه السلام: ((فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه)).

اولئك، أشركهم الشيطان في سلطانه. وسلطان الشيطان على الذين يتولونه ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠٠].

فيكون لهؤلاء سلطان ونفوذ على الذين يتولون الشيطان، كما كان للشيطان سلطان ونفوذ عليهم، فيدعونهم الى

ركوب الاهواء والشهوات.

ويسخرهم الشيطان لينطقوا بخطابه ودعوته، فيحملون خطاب الشيطان الى الناس بالنيابة عن الشيطان، ويضللون الناس ويحرفونهم ويفسدونهم. ونحن عندما نسمع خطاب بعض أولياء الشيطان في الغرب، اوعندنا في الشرق، وما يَحمِلُهُ هذا الخطاب من إغواء وتضليل وتحريف وإثارة وكذب نتذكر كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيهم.

-٣-

﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

المفاجأة:

عندما يصيبهم مسّ من الشيطان يذكّرهم الله تعالى، بحضور الشيطان، ويبصّرهم به، فيهرب الشيطان.

وكلمة (اذا) في هذه الآية ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ للمفاجأة.

في لحظة واحدة تتبدّد الغفلة، ويحل محلّها التذكر، ويسقط الحجاب الذي كان يحجب عنه حضور الشيطان ومسه، ويتحول الانسان من الغفلة الى التذكر والبصيرة، فينسحب الشيطان هارباً، فإن الشيطان ينشط في الظلام، ويهرب من النور.

الانقلابات النفسية:

إنّ التقوى من مقولة المقاومة والتذكير، والبصيرة من مقولة مختلفة، مقولة النور، وهما مقولتان مختلفتان في نفس الانسان. إلا أنّ التقوى، في هذه اللحظات، تتحول الى نور وبصيرة في نفس الانسان، فيبصِرُ الانسان الشيطان، فيهرب منه الشيطان، وكل ذلك يتم دفعة واحدة.

كيف تنقلب التقوى الى البصيرة:

هذا واحد من أسرار هذا الدين، وأسرار النفس الانسانية.

نحن نعرف في الفيزياء، كيف تتحول الحرارة الى الحركة، وكيف تتحول الحركة الى حرارة ونور.

والعلماء يقيسون كل ذلك بقياسات دقيقة في المختبرات العلمية.

ويعرف العلماء من خلال العمل في المختبرات العلميّة الانقلابات التي تحصل بسبب التركيبات الكيمياوية، ولكن النفس الانسانية لا تدخل في المختبرات،

ولا يمكن تحليلها كما نحلل المادة والطاقة في مختبرات الكيمياء والفيزياء.

وتجري داخل النفس تحولات واسعة، ولا سبيل للعلم الى معرفة هذه التحولات التي تجري داخل النفس.. حتى علم النفس الحديث لم يكتشف بعد أسرار هذه الانقلابات الكبيرة التي تجري داخل النفس الانسانية، بل لا نعرف في الدراسات النفسية الحديثة دراسة عن هذه الانقلابات النفسية... والقرآن يفتح على الانسان لاول مرة كما أُظن الانقلابات العجيبة التي تجري داخل النفس.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [سورة الحديد: ٢٨]

ويقول تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[سورة البقرة: ٢٨٢].

إنّ التقوى تتحول الى نور وبصيرة ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا ﴾ ويتحول الى علم ومعرفة ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وليس المقصود بالعلم هنا الطب والصيدلة والجراحة والمنطق والفلسفة والبلاغة والادب، وإنما هو معرفة الله تعالى والايمان بالغيب والمعاد ومعرفة النفس.

البصيرة والنور ﴿ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾.

قلت إنّ كلمة (اذا) في هذه الجملة تفيد المفاجأة. يعني دفعة واحدة يرزقهم الله تعالى نوراً يكشف الشيطان، فيهرب الشيطان، فإن الشيطان يعمل في الظلام ولا يطيق النور.

إنّ هذا النور ليس كالنور الذي يعرفه الناس في الفيزياء، وإنّما ينبعث من داخل نفوس أصحابها فيضيء لهم الطريق، ويكشف لهم الاخطار والمهالك التي تعترضهم على الطريق الذي يمشون عليه ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

هو نور للسلوك، يكسبه الانسان في الحياة الدنيا بالإيمان والتقوى، ويبقى هذا النور معهم الى يوم القيامة.

يومئذ يسأل المنافقون الذي يعيشون في الظلمات المؤمنين من أصحاب التقوى أنْ يأذنوا لهم ليقتبسوا منهم بعض هذا النور، فيقول لهم المؤمنون المتقون: إنهم

كسبوا هذا النور من قبل في الحياة الدنيا، ويقولون لهم على سبيل الاستهزاء: إرجعوا وراءكم الى الدنيا واقتبسوا هذا النور هناك، ولا سبيل لهم البته للعودة يومئذ الى الحياة الدنيا ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [سورة الحديد: ١٣].

أمثلة وشواهد على هذا التحوُّل:

إنّ للتقوى مراحل ومراتب ودرجات، وقد يكون الانسان يسير على طريق ضلال، ولكن يحمل معه نصيباً من التقوى، فيكون له نصيب من هذا النور، فينفعه هذا النور في الدنيا في الساعات الحرجة التي يدفعه فيها الشيطان الى السقوط والهلاك، وهو سّر الانقلابات النفسية الكبيرة في حياة الانسان.

لقد كان (الحُرّ بن يزيد الرياحي)رحمه الله، قائداً في جيش بني أمية، وقد أرسله عبيد الله بن زياد ليأتي بالامام الحسينعليه السلام مخفوراً الى الكوفة، وأرسل معه جيشاً قوامه الف مقاتل.

ولكن (الحر)رحمه الله عندما بلغ يوم عاشوراء الى حافة السقوط والهلاك الدائم في قتال الحسينعليه السلام أضاء الله تعالى في نفسه هذا النور إضاءة قوية، فانقلب من معسكر ابن زياد الى معسكر الحسينعليه السلام مرة واحدة، فجأة، أمام دهشة المعسكرين.

لقد كان الحررحمه الله قائداً في جيش ابن زياد، ولكن لم يُمَكّن ابن زياد من نفسه وعقله وقلبه... والذي يقرأ قصة لقائه بالإمامعليه السلام في منزل (ذي حسم) في الطريق، يجد في سلوكه وكلامه مع الامام أدباً وتقوى لا يجده في غيره، فهو وجيشه يصلون بصلاة الإمامعليه السلام ولا يؤم جماعته بالصلاة، بجماعة ثانية، كما تقتضي الحالة في مثل هذه المواقع، وعندما أغضب الحر الإمامعليه السلام، قال له الإمام (ثكلتك امك)، فقال للإمام: والله لو أنّ غيرك من العرب ذكر أمي لم اترك ذكر امه، كائناً من كان، ولكن لاسبيل لنا الى ذكر امك إلا بافضل ما نقدر عليه.

نسأل الله تعالى التوفيق وحسن العاقبة.